سلسلة منشورات دار الإمام مسلم (١٤)

حسن الظن بالناس

تأليف
عبد المالك بن أحمد رمضاني

دار الإمام مسلم

حُسْنُ الظَّنِّ بالنَّاس

ح عبدالمالك بن أحمد رمضاني. ١٤٣٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

رمضاني، عبدالملك أحمد

حسن الظّن بالناس./ عبدالملك أحمد رمضاني-. المدينة المنورة، ١٤٣٢هـ.

٦٤ ص، ١٢×١٧ سم

ردمك: ٧ـ ٨٨٣١ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

١ـ الأخلاق الإسلامية ٢ـ الفضائل الإسلامية أ. العنوان

ديوي ٢١٢,٢ ١٤٣٢/١٠٧١٢

رقم الإيداع: ١٤٣٢/١٠٧١٢

ردمك: ٧ـ ٨٨٣١ـ ٠٠ـ ٦٠٣ـ ٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م

دار الإمام مسلم للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية ـ المدينة المنورة

جوال: ٠٠٩٦٦٥٥٥٩٩٦٤٠٠ ـ ٠٠٩٦٦٥٠٥٩٩٦٤٠٠

البريد الإلكتروني: DarAlimamMuslim@Gmail.com

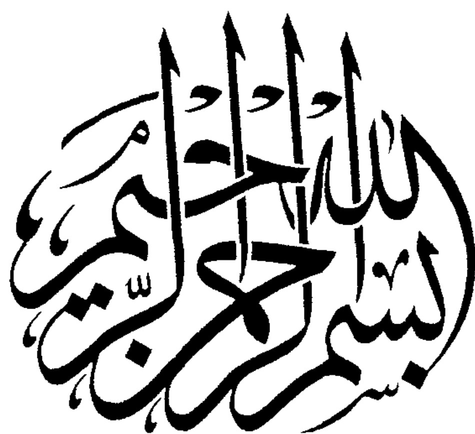
سلسلة منشورات دار الإمام مسلم (١٤)

حُسْنُ الظَّنِّ بالنَّاس

تأليف

عبد المالك بن أحمد رمضاني

دار الإمام مسلم


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمدُ لله ربِّ العالمَين، وأَشهدُ أن لَا إلهَ إلَّا اللهُ وحدَه لَا شَريكَ له، وأَشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورَسولُه.

في خضمِّ هَذه الحَياةِ الَّتي يَعيشُها النَّاسُ وهم يُعاملُ بَعضُهم بعضًا، يَحتاجُ كلٌّ منهم إلى خلُقٍ يَتمكَّن من خلالِه أن يُعاشِر وأن يُعاشَر، وهم في حركةٍ دائمةٍ مع غيرِهم: فمع الوالِدَين، ومع الأَبناءِ والإخوةِ، ومع الفَقيرِ واليَتيمِ، ومع الزَّوجاتِ، ومع الجارِ والصَّاحبِ، ومع الشَّريكِ في العمل أو التِّجارةِ، ومع المسلم والكافرِ، كلُّ هؤلاءِ وغيرُهم كَثيرٌ يُطلب منَّا أن نُعاشِرَهم بخلُقٍ يُناسبُه.

قالَ اللهُ تعالى في آيةِ الحُقوقِ العَشرةِ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡجَارِ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡجَارِ ٱلۡجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلۡجَنۢبِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن

كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ [النساء: ٣٦].

وأَخلاقيَّاتُ البشرِ مُختلفةٌ ومُتفاوتةٌ، وأَهواؤهم لَا تَكادُ تَكون مُنضبطةً، لكنَّ حاجةَ بَعضِهم إلى بعضٍ أمرٌ لَا مفرَّ منه، فالمُعاشرةُ - قلَّت أو كَثرَت - لَا يَسْلم منها أحدٌ، لذَا احتاجَ المرءُ أن يَضبطَ نَفسَه ويجاهدَها على أن يؤدِّيَ ما علَيه ويَقضيَ حاجتَه بلَا ضررٍ ولَا ضِرارٍ.

وإذَا كانَ لنا أن نَعترفَ بأنَّنا نُعاني مِن نَقصٍ خُلقيٍّ بيِّنٍ، فحريٌّ بكلِّ مسلمٍ أن يعالجَ ذلكَ بالمُرابطةِ على حِصنِ خلقِه مِن ثلاثةِ ثُغورٍ:

الأوَّل: أنَّ ما كان له مِن خُلقٍ طيِّبٍ جِبلَّةً حَمدَ اللهَ علَيه كما فَعل أشجُّ عبد القَيس رضي الله عنه، فقد قالَ له النَّبيُّ ﷺ: «**إنَّ فيكَ خَلَّتَين يُحبُّهما اللهُ: الحِلمُ والأَناةُ**، قالَ: يَا رَسولَ الله! أنا أَتخلَّقُ بهما أم اللهُ جَبلَني علَيهما؟ قالَ: **بل اللهُ جَبلَك علَيهما**، قالَ: الحمدُ لله الَّذي جَبلَني على خَلَّتَين يحبُّهما اللهُ ورَسولُه» رواه أبو داود (٥٢٢٥) وصحَّحه الألبانيُّ فيه.

فبِهَذا الحمدِ يَحفظُ اللهُ له هَذا الخلقَ ويَزيدُه؛ لأنَّ اللهَ قالَ: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، ويَنجُو من الغُرورِ بمَدح نَفسِه به، فأَكثرُ الخَلق يُحسِّنون ظُنونَهم بأَنفسِهم ويَعتقِدون فيها الخُلقَ الكاملَ، مع أنَّه ما كانَ لدَيه من أدبٍ فإنَّما هو من الله وحدَه وليسَ من الإنسانِ شيءٌ؛ كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾[النحل: ٥٣].

الثَّاني: يَنبغي له أن يَحذرَ مِن تَضييع ما له مِن خُلقٍ حسنٍ بمُخالطةِ قُرناءِ السُّوءِ، فكَم مِن فِطرةٍ تحرَّفَت على صاحبِها بسَببِهم؛ فعن أبي هُريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «**الرَّجلُ على دِين خَليلِه، فَليَنظُر أَحدُكم مَن يُخالِل**» رواه أبو داود (٤٨٣٣) والترمذي (٢٣٧٨) وصحَّحه الألبانيُّ في «السلسلة الصحيحة» (٩٢٧).

الثَّالثُ: مَا كانَ فيه مِن نَقصٍ خُلقيٍّ، فعلَيه باثنتَين:

١ - أن يَفزعَ إلى ربِّه داعيًا إيَّاه أن يُحسِّن له خُلقَه؛ فقَد كانَ الرَّسول ﷺ يَدْعو اللهَ بذَلك وهوَ الَّذي قالَ اللهُ تعالى

له: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم:٤]، فروَى أحمَد (٦/ ٦٨) بسنَدٍ صَحيحٍ عن عائِشةَ قالَت: «كانَ رَسولُ الله ﷺ يَقولُ: **اللَّهمَّ أَحسَنتَ خَلْقي، فأَحسِنْ خُلُقي**»، هَذا دُعاءُ الكامِلِ، فكيفَ بالنَّاقص؟!

٢- أن يَستعينَ بالله لتَعويدِ نَفسِه على المَكارم الَّتي تَستصعبُها نفسُه، وذلكَ مِن جِهتَين:

الأُولى: جِهة التَّعلُّم؛ لأنَّنا نَعترفُ بأنَّنا نُعاني مِن تَباينٍ خُلقيٍّ بسببِ الجَهل، وإصلاحُ هَذا الخَلَل إنَّما يتمُّ بالعِلم، والعلمُ المَقصودُ هو عِلمُ الكتابِ والسّنةِ لَا التَّجارب البشريَّة.

والثَّانيةُ: جهة العَمل، وذلكَ بمُمارستِها وتَطويعِ النَّفس لها.

والدَّليلُ على هذَين الأمرَين أنَّ النَّبيَّ ﷺ جَمع بين العِلم والعَمل في حَديثٍ واحدٍ؛ وذلكَ قولُه ﷺ: «**إنَّما العِلمُ بالتَّعلُّم، والحِلمُ بالتَّحلُّم**» رواه الخطيب في «تاريخه» (٩/ ١٢٧) وحسَّنه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٣٤٢).

هَذا كلامٌ عامٌّ عن الأَخلاقِ، وأمَّا مَوضوعُ حُسن الظَّنِّ

فهو بابٌ عَظيمٌ من أَبوابِ الخُلقِ الحسنِ؛ إذ ما يَزالُ صاحبُه مُرتاحَ البالِ نَظيفَ القَلب، قد تنقَّى من الوَساوِس المنغِّصةِ، وتصفَّى مِن الهَواجِس الممحِّصةِ، يُحبُّ الخَيرَ لإخوانِه المؤمنِينَ جَميعًا.

وإن اختفَى هَذا الخُلقُ من صاحبِه حلَّ محلَّه سُوءُ الظَّنِّ، خُلقٌ مُبغَضٌ من جَميع الخَلقِ، فبسببِه حُبسَ يوسُف ﷺ ظُلمًا، وقالَ فيه مَن هوَ أَحقُّ منه بالتُّهمةِ: ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسۡجَنَ أَوۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [يوسف: ٢٥]، مع أنَّه ما أَرادَ بأَهلِ الملِك سوءًا قطُّ، وما قالَت ما قالَت إلَّا لعِلمِها بأنَّ التُّهمَ تَعيشُ في القُلوبِ المَشحونةِ بالظُّنونِ، وبسببِه رُميَت أُمُّنا الصِّدِّقةُ بنتُ الصِّدِّيقِ رضي الله عنها بالإفكِ المُبين، قالَ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلۡإِفۡكِ عُصۡبَةٞ مِّنكُمۡ﴾ [النور: ١١]، وقالَ: ﴿لَّوۡلَآ إِذۡ سَمِعۡتُمُوهُ ظَنَّ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمۡ خَيۡرٗا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفۡكٞ مُّبِينٞ﴾ [النور: ١٢].

وبإشهارِ سلَاح سوءِ الظَّنِّ حاولَ قومُ فِرعَونَ صدَّ

النَّاس عن دَعوةِ موسَى ﷺ بادِّعاءِ أنَّه ما أَرادَ إلَّا أَخذَ أَرضِهم لعِلمِهم بأنَّ النُّفوسَ تَستجيبُ لِمثل هَذه التُّهمةِ وتَقوَى ظُنونُها فيها لِما فُطرَت علَيه مِن حبِّ الأَوطانِ، قالَ ﷻ: ﴿ قَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِ فِرۡعَوۡنَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ عَلِيمٞ ١٠٩ يُرِيدُ أَن يُخۡرِجَكُم مِّنۡ أَرۡضِكُمۡۖ فَمَاذَا تَأۡمُرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٠٩ – ١١٠].

ولَمَّا كانَت النُّفوسُ تُزاحِم على الرُّتبِ الدُّنيويَّةِ؛ فقد جَهدَ المُشرِكونَ أَنفسَهم لإسقاطِ رِسالاتِ الأنبياء عليهم الصَّلاةُ والسَّلامُ كما فعلَ قومُ نوحٍ، قالَ تَعالى: ﴿ فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ ﴾ [المؤمنون: ٢٤]، فطَعنوا في نيَّتِه وهو بريءٌ.

ولن تَثبتَ هَذه التُّهمةُ في قُلوبِ قومِه إلَّا إن دَعمَها سوءُ الظَّنِّ، ولذَلكَ ابتعدَ الأَنبياءُ عليهم السلام في دَعوتِهم عن التَّلبُّس بشيءٍ مِن حُظوظِ الدُّنيَا ولو باسم الدِّين، فقد قالُوا جَميعًا كَلمةً واحدةً لدَفْع النَّفرةِ عن دَعوتِهم، ألَا وهيَ قولُهم كما حَكاه القُرآنُ الكَريمُ في غيرِ ما آيةٍ: ﴿ وَمَآ

أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الشعراء: ١٠٩]، حكَى هَذه المقولةَ ربُّنا ﷻ عن كلِّ نبيٍّ، فقد جاءَت في القُرآنِ أَكثرَ من أحدَ عشَر مرَّة عدَا المرَّاتِ الَّتي في مَعناها، كلُّهم قالَها ليَنفيَ عن دَعوتِه ما قد يَكونُ سببًا لإساءةِ الظَّنِّ به، فلو أنَّهم دعَوا إلى الإسلَام ودعَوا في الوَقتِ نَفسِه إلى تَغييرِ السُّلطةِ أو طلبِ المالِ لأَوشكَ النَّاسُ أن يَرفُضوهم.

وبهَذا يتبيَّن لنا سببُ إخفاقِ الدَّعواتِ الحرَكيَّةِ اليَومَ الَّتي أَكثرُ ثَرثرتِها عن السُّلطةِ وحُقوقِ الشُّعوبِ المادِيَّةِ؛ فإنَّ النَّاسَ سُرعانَ ما يتَّهمونَ أَصحابَها بفَسادِ النِّيَّة، وهو فُرقانُ ما بينَ دَعوةِ أهل السُّنةِ ودَعوةِ غيرِهم، ولذلكَ فقد جرِّب على الدَّعواتِ البدعيَّةِ أنَّهم كلَّما أَرادُوا التَّخلُّصَ من دَعوةِ أَهل السُّنة نشَروا في النَّاس - بل عندَ ذَوي السُّلطةِ خاصَّةً - أن احذَروهم؛ فإنَّهم يُريدونَ الوُصولَ إلى السُّلطةِ! فتأمَّل.

وقد أَحببتُ تَذكيرَ المسلمِين بضـَرورةِ التَّأدُّب بخُلق حُسن الظَّنِّ لَمَّا رأَيتُ أنَّ أَكثرَ الخَلقِ عنه ناكِبونَ، وعن سَبيلِه غافِلونَ، ومِن أَوديةِ الشُّكوكِ والتُّهم ناهِلونَ، وكلُّنا ذاكَ المسيءُ، لكن لعلَّ في التَّذكيرِ بالحقِّ تسبُّبًا في التَّحسينِ الخُلقيِّ، واللهُ وحدَه المسئولُ أن يُطهِّرَ قُلوبَنا ويُصلحَ ذات بَينِنا؛ إنَّه سَميعُ الدُّعاءِ.

المدينة في ٢٦ جمادى الآخرة ١٤٣٢ هـ

حُسنُ الظَّنِّ وسيِّئُه

مِن الأَخلاقِ الكَريمةِ الَّتي جاءَ بها دِينُنا حُسنُ الظَّنِّ بالنَّاس، وهوَ خلُقٌ رَفيعٌ يدلُّ على باطنٍ حسنٍ، وعلامةُ الباطنِ الحسنِ صَفاءُ الفِكرِ للإخوانِ وسَلامةُ الصَّدرِ لهم، فإذَا صاحبَه لينُ جانبٍ وعفَّةُ لِسانٍ فقد تمَّ مِن خلُقِه كلُّ بُنيانٍ؛ لأنَّ القُلوبَ إذَا طابَت خَواطرُها كما أنَّ الشَّجرةَ إذا طابَ أَصلُها طابَت ثِمارُها، وبالمقابِل فإنَّ الظُّنونَ تَسوءُ على قَدرِ ما تَنبنِي علَيه القُلوبُ من سوءٍ.

والأَخلاقُ الحسنةُ ثمرةُ القُلوبِ الحسنةِ، وأَحسنُ ما وقرَ في القُلوبِ هو كَلمةُ التَّوحيدِ الَّذي هو أَكبرُ باعثٍ على الصَّلاح، كما قالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤ – ٢٦].

وقد عَظمَ الخَطبُ في أَخلاقيَّاتِ النَّاس، وكانَ مِن أَكبرِ أَسبابِ ذلكَ جَعلُ الآذانِ رَصدًا للأَنجاس، فتَدنَّسَت الصُّدورُ بسوءِ الظَّنِّ، حتَّى تَدافَعَت الظُّنونَ الحَسنةَ، واستَعاضَت منها الشُّكوكَ العَفنةَ، فوقعَت الفُرقةُ، وشُحنَت القُلوبُ وعَظمَت الشُّقَّة.

فعلى مائدةِ سوءِ الظَّنِّ اجتمعَ اللِّئامُ باللِّئام، وبه قُطعَت الأرحامُ، وتَبادلَ النَّاسُ التُّهم، وغصُّوا غِيبةً ونَميمةً حتَّى التُّخم! فكم مِن ظنٍّ سَقيم، منعَ أُخوَّةً أن تَستدِيم، وانقلبَت الرَّحمةُ والأخوَّةُ إلى قَسوةٍ وعَداوةٍ، وقد رأَينا في ذلكَ أَمثلةً عَجيبةً:

فواحدٌ وَجدَ في نَفسِه على أَخِيه؛ لأنَّه مرَّ به فلم يسلِّم علَيه!

وثانٍ لأَنَّه لم يُدعَ إلى وَليمةِ عُرسٍ مِن قِبَل حَميمٍ له أو تَلميذٍ أو مَمنونٍ علَيه!

وثالثٌ سأَلَ أخًا له عاريةً فلم يُعطِه، فتغيَّرَ قَلبُه علَيه!

ورابعٌ دعَا أَخاه لفرحِه فلم يَحضُر إلَيه!

وخامسٌ وعدَه أَخوه ولم يَفِ له!

وسادسٌ طعنَ على زَوجتِه في عِرضِها لِرسالةِ هاتفٍ مجهولةٍ.

وسابعٌ كلَّمَ أَخاه بهاتفٍ فلم يُجبْ.

وثامنٌ بُلِّغ أنَّ فلانًا تكلَّم فيه!

وهَكذا... نَتائجُ مَشئومةٌ، تَفرزُها قُلوبٌ مَسمومةٌ.

وقد كانَ حقُّ الأوَّلِ أن يَشفيَ صدرَه بقَولِه: لعلَّ بالَ أخِي مَشغولٌ بداهيةٍ حلَّت به، فكانَت عَينُه في عَينِي وقلبُه سَرحانٌ، يا لَيتني أَكونُ عندَه فأُساعدَه...

وحقُّ الثَّاني أن يَقولَ: لعلَّه نسيَ أن يَدعُوَني، فاللهُ يُبارِكُ له...

وحقُّ الثَّالثِ أن يَقولَ: لعلَّه مُحتاجٌ إلَيها...

وحقُّ الرَّابعِ أن يَقولَ: لعلَّه لم يَحضُر لضَيفٍ نزَلَ به أو غيرِ ذلكَ...

وحقُّ الخامس أن يَقولَ: ما تخلَّف عن الموعِدِ إلَّا لشــيءٍ غلبَه، فأَسألُ اللهَ أن لَا يُريَه مَكروهًا...

وحقُّ السَّادس أن يَقولَ: المُعاكِسون مِن أَهل الفُجورِ كذلكَ يَفعَلونَ...

وحقُّ السَّابع أن يَقولَ: لعلَّه نائمٌ أو مَشغولٌ أو نَسيَ هاتفَه على الصَّامتِ...

وحقُّ الثَّامنِ أن يَقولَ: عسَى أن يَكونَ النَّاقلُ نقلَ ما لم يَفهَم، فيَسْلمُ مِن سوءِ الظَّنِّ بالمُخبِرِ والمُخبَرِ عنه...

وانطِلاقًا مِن سوءِ الظَّنِّ قالَ الفَقيرُ: لم يَحمِلْني الغنيُّ في سيَّارتِه إلَّا لكِبرٍ!

وانطلَاقًا منه قالَ الغنيُّ: ما سلَّم عليَّ الفَقيرُ إلَّا لأُعطيَه!

وانطِلاقًا منه قالَ المأمومُ المَفتونُ: ما دَعا الإمامُ على مِنبرِه للحاكِم إلَّا نِفاقًا!

وانطِلاقًا منه قالَت الرَّعيَّةُ في رَئيسِها: ما خَدمَنا إلَّا حِفاظًا على كُرسيِّه!

وانطِلاقًا منه قالَ الصَّاحبُ في صاحبِه: ما ماشَى خَصمِي إلَّا ليُشمِت بي!

وانطِلاقًا منه قالَ طالبُ العِلم في ندِّه: ما خالَفَني إلَّا ليَبرزَ! وهَكذا في سِلسلةٍ من التَّخرُّصاتِ لَا يُحصِيها إلَّا المطَّلِع على أَعمالِ العِبادِ وقُلوبِهم، وأَكثرُ النَّاس في تَفسيرِ ما لَا يَعْلمون حَقيقتَه عن حُسنِ الظَّنِّ ناكِبون، وفي الصَّبرِ علَيه محَرومونَ.

قالَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠].

التَّثبُّت في الأخبار

الأَخبارُ المزعِجةُ هيَ أشدُّ الوارِداتِ على القُلوبِ؛ إذ أَغلبُ الخَلقِ لَا يَتورَّعون عن قَبولِ الأَخبارِ الَّتي تَبلغُهم عن غيرِهم، وعلى غِرارِها يَتسرَّعونَ في إصدارِ حُكمِهم على أصحابِها، كما يَتسرَّعونَ في نَشرِها، وقلَّةٌ قَليلةٌ مِنهم مَن يَعملُ بآيةِ التَّبيُّن إذَا وفَدَت علَيه الأَخبارُ، لَا سِيما مَن كانَ بينَه وبين المُخبَرِ عنه شَنَآنٌ وشِجار؛ فإنَّ النَّفسَ الشَّحيحةَ بحظِّها لَا يدَعُها حِرصُها على الانتِصارِ أن تتأنَّى وتَخشَى اللهَ في خَصمِها.

قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمَۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ ﴾ [الحجرات: ٦]، وقد لَا تَكونُ الثِّقةُ بالمُخبِرِ أَولَى مِن الثِّقةِ بالمُخبَرِ عنه، وقد يَكونُ المرءُ صادقًا لكنَّه في هَذه المرَّةِ سهَى أو طغَى، أي طغَى فهمًا، أو طغَى عِصيانًا كالَّذي يَكونُ بين الأَقرانِ مثلًا.

وأَكثرُ النَّاس يَنقُلونَ في هَذا ما ليسَ لهم بهِ عِلمٌ، الأمرُ الَّذي نَعاه اللهُ على قَومٍ فقالَ: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [النور: ١٥]، مع أنَّ هَذهِ الظُّنونَ المَرجوحةَ لَا تُفيدُ في مُطالعةِ الحَقائقِ؛ قالَ اللهُ تَعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [يونس: ٣٦]؛ وذلكَ لأنَّ الظَّنَّ الخالِي عن القَرائنِ لَا يُعدُّ عِلمًا، قالَ اللهُ تَعالى: ﴿مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ﴾[النساء: ١٥٧]، ولذَلكَ كَثيرًا ما يُقابِل اللهُ الظَّنَّ بالعِلم، كما قالَ: ﴿قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقالَ: ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾[النجم: ٢٨].

وقد أمرَ اللهُ باجتِنابِ كَثيرٍ مِن الظَّنِّ لنَأمنَ الوُقوعَ في بَعضِه الَّذي يَكونُ إثمًا، فقالَ ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢]، وهَذا غايةٌ في الاحتِياطِ لأَعراضِ المُسلمِين؛ لأنَّ اللهَ أَمرَ المؤمنِين

بالإِعراض عن الكَثيرِ كي لَا يَقعُوا في بَعضِه فقَطْ.

قالَ أبو السُّعود في تفسيرِ هَذه الآية في كتابه «إرشاد العَقل السَّليم إلى مَزايَا الكِتاب الكَريم»: «وإبهامُ الكَثيرِ لإيجابِ الاحتِياطِ والتَّأمُّل في كلِّ ظنٍّ ظُنَّ حتَّى يعلمَ أنَّه مِن أيِّ قَبيلٍ».

وأكثرُ الأَسبابِ الدَّافعةِ لتَركِ العَدلِ في التَّعاملِ مع النَّاس والحُكم علَيهم بالظَّنِّ المجرَّد هو استِقبالُ الأَخبارِ الوافدةِ عنهم بسوءِ ظَنٍّ، وقد أمرَ اللهُ المؤمِنين ألَّا يَظنَّ بَعضُهم ببَعضٍ إلَّا خَيرًا فقالَ: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُواْ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]، قالَ المفسّرونَ: أي ظنَّ المؤمِنونَ ببَعضِهم البَعض خيرًا، كقَولِه تَعالى لبَني إسرائِيل: ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، أي لِيَقتل بَعضُكم بَعضًا.

وما قَتلَ الخَليفةَ الثَّالثَ ذا النُّورِين عُثمانَ بنَ عفَّان رضي الله عنه إلَّا اتِّباعُ خبرٍ كُذِب علَيه فلم يُتحقَّق منه، وذلكَ أنَّ الثُّوَّار

لَمَّا قصَدوه واعترَضوا علَيه في أَشياء تسرَّعوا في فَهمِها على غيرِ حَقيقتِها وفي الحُكم علَيه بما هو براءٌ منه، جلَّى لهم أَمرَها فرجَعوا.

فجاءَ شقيٌّ وزوَّرَ رِسالةً باسم عُثمانَ مَضمونُها أَنَّه ﷺ يَأمرُ واليَه على بلدةِ أُولئكَ الثُّوَّار أن يَقتلَهم عندَ رُجوعِهم، فانطلَى هَذا الخبرُ الكاذبُ علَيهم بعدَ أن ركِبوا هَواهم، وبسببِه قتَلوه ﷺ.

روَى البَزَّار في «البحر الزَّخَّار» (٣٨٩) وابن حبَّان (٦٩١٩) وأبو نُعيم في «الإمامة والرد على الرافضة» (١٦٤) وابن جَرير في «تاريخ الرسل والملوك» (٣/ ٣٩٠، ٤١٤) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٣٩/ ٢٥٧) عن أبي سعيدٍ مَولَى أبي أسيد الأنصاري قالَ: «سمِعَ عُثمانُ أنَّ وفدَ أَهْل مِصر قد أَقبَلوا فاستَقبلَهم، فلمَّا سَمعوا به أَقبلُوا نَحوَه إلى المَكانِ الَّذي هو فيهِ، فقالُوا له: ادْعُ المُصحَف، فدَعا بالمُصحَف، فقالَ له: افتَحْ السَّابعةَ، قالَ: وكانُوا

يُسمُّون سورةَ يونُس السَّابعة، فقرَأَها حتَّى أتى على هذِه الآيةِ: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَـٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩]، قالُوا له: قِفْ! أرَأيتَ ما حَميتَ مِن الحِمَى[1]، آلله أَذِن لكَ به أم على الله تَفترِي؟! فقالَ: أَمضِه، نزَلَت في كَذا وكَذا، وأمَّا الحِمَى لإبلِ الصَّدقةِ فلمَّا ولَدَت زادَت إبلُ الصَّدقةِ فزدتُ في الحِمَى لمَّا زادَ في إبلِ الصَّدقةِ، أَمضِه، قالُوا: فجَعلوا يَأخُذونه بآيةٍ آيةٍ، فيقولُ: أَمضِه نزلَت في كَذا وكَذا، فقالَ لهم: مَا تُريدونَ؟ قالُوا: مِيثاقَك، قالَ: فكَتبوا علَيه شَرطًا، فأَخذَ علَيهم أن لَا يَشقُّوا عصًا ولَا يُفارِقوا جَماعةً ما قامَ لهم بشَرطِهم، وقالَ لهم: مَا تُريدونَ؟ قالُوا: نُريدُ أن لَا يَأخذ أَهلُ المَدينةِ عطاءً، قالَ: لَا! إنَّما هَذا المالُ لمَن قاتَلَ علَيه ولهَؤلاءِ الشُّيوخ مِن أَصحابِ محمَّدٍ ﷺ، قالَ: فرَضُوا وأَقبَلوا معَه إلى المدينةِ راضِين.

(١) حِمايةُ الحِمَى هيَ أن يَحميَ الرَّجلُ مَكانَ عُشبٍ للرَّعي ويَمنعَ غيرَه منه.

قالَ: فقامَ فخَطبَ، فقالَ: ألَا مَن كانَ له زرعٌ فَليلحَق بزَرعِه، ومَن كانَ له ضَرعٌ فَليَحتلِبه، ألَا إنَّه لَا مالَ لكم عِندَنا؛ إنَّما هَذا المالُ لَمن قاتَلَ علَيه، ولهَؤلاءِ الشُّيوخ مِن أَصحابِ محمَّدٍ ﷺ، قالَ: فغضِبَ النَّاسُ وقالُوا: هَذا مَكرُ بني أميَّة!

قالَ: ثمَّ رجَع المِصريُّون، فبَينَما هُم في الطَّريقِ إذَا هُم براكبٍ يَتعرَّض لهم ثمَّ يُفارقُهم ثمَّ يَرجعُ إلَيهم ثمَّ يُفارقُهم ويَسبُّهم، قالُوا: مَا لك؟ إنَّ لك الأمانَ، ما شَأْنُك؟ قالَ: أنا رَسولُ أَميرِ المُؤمنينَ إلى عاملِه بمِصرَ، قالَ: ففتَّشوه فإذَا هُم بالكِتابِ على لِسانِ عُثمانَ علَيه خاتمُه إلى عاملِه بمِصرَ: أن يَصلبَهم أو يَقتلَهم أو يَقطعَ أَيديَهم وأَرجلَهم.

فأَقبَلوا حتَّى قدِموا المَدينةَ، فأتَوا عليًّا فقالُوا: ألَمْ ترَ إلى عدوِّ الله كَتبَ فينَا بكَذا وكَذا؟! وإنَّ اللهَ قد أحلَّ دمَه!! قُمْ معَنا إلَيه، قالَ: والله! لَا أَقومُ معَكم، قالُوا: فلِمَ كَتبتَ إلَينا؟ قالَ: والله! ما كَتبتُ إلَيكم كِتابًا قطُّ، فنَظرَ بَعضُهم

إلى بَعضٍ، ثمَّ قالَ بَعضُهم إلى بعضٍ: أَلِهذا تُقاتِلون؟ أو لِهَذا تَغضَبون؟ فانطلَق عليٌّ فخَرجَ مِن المَدينةِ إلى قَريةٍ، وانطلَقوا حتَّى دَخلوا على عُثمانَ، فقالُوا: كَتبتَ بكَذا وكَذا؟ فقالَ: إنَّما هُما اثنَتانِ: أن تُقِيموا عليَّ رَجلَين مِن المُسلمينَ[1]، أو يَمِيني بالله الَّذي لَا إلهَ إلَّا اللهُ ما كتبتُ ولَا أَملَيتُ ولَا عَلمتُ، وقد تَعْلمون أنَّ الكِتابَ يُكتبُ على لِسانِ الرَّجلِ، وقد يُنقشُ الخاتمُ على الخاتم، فقالوا: والله! أحلَّ اللهُ دمَك!! ونَقضوا العهدَ والمِيثاقَ فحاصَروه.

فأَشرفَ علَيهم ذات يَومٍ فقالَ: السَّلامُ علَيكم، فما أَسمعُ أحدًا مِن النَّاس رَدَّ علَيه السَّلامَ إلَّا أن يَردَّ رَجلٌ في نَفسِه، فقالَ: أَنشدُكم اللهَ: هَل عَلمتُم أنِّي اشتَريتُ رومَة مِن مالِي، فجَعلتُ رِشائِي فيها كرِشاءِ رَجلٍ مِن المُسلِمين؟ قيلَ: نعَم! قالَ: فعَلامَ تَمنَعوني أن أَشربَ منها حتَّى أُفطرَ على ماءِ البَحرِ؟ أَنشدُكم اللهَ: هَل عَلمتُم أنِّي اشتَريتُ كَذا

(١) أي يَشهَدانِ عليَّ بما زَعمتُم.

وكَذا مِن الأرضِ فزِدتُه في المَسجدِ؟ قيلَ: نعَم! قالَ: فهَل عَلمتُم أنَّ أحدًا مِن النَّاس مُنِع أن يُصلِّيَ فيه قَبْلي؟ أَنشدُكم اللهَ: هَل سَمعتُم نبيَّ الله ﷺ يَذكرُ كَذا وكَذا؟ أَشياءَ في شَأنِه عدَّدَها، قالَ: ورَأيتُه أَشرفَ علَيهم مرَّةً أخرَى فوَعظَهم وذكَّرَهم فلم تَأخُذ مِنهم المَوعظةُ...».

ثمَّ مع هَذا كلِّه قَتلوه بعدَها، فانظُرْ ماذَا فَعلَته الأَخبارُ بالمُسلمِين حينَ خالَفوا أمرَ الكِتابِ في التَّبيُّن، وأَكثرُ النَّاس من هَذا النَّمطِ، لَا تَخفَى علَيهم آيةُ التَّبيُّن ولكِن عندَ التَّطبيقِ يَعمَون عنها، وإنَّا لله وإنَّا إلَيه راجِعون.

ومِن النَّاس مَن يتَورَّع عن كَثيرٍ من الكَذبِ، ولكنَّه دائمُ الوُقوع في أَكذبِ الكذبِ، ألَا وهو الاستِسلَامُ للظُّنون المُجرَّدةِ عن القَرائنِ الصَّحيحةِ، ففي صَحيح البخاري (٤٨٤٩) ومُسلم (٦٧٠١) عن أبي هُريرةَ عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**إيَّاكُم والظَّنَّ؛ فإنَّ الظَّنَّ أَكذَبُ الحَديثِ**»؛ وذلكَ لأنَّ وُقوعَ الكَذبِ في الظَّنِّ أكثرُ مِن وُقوعِه في

الكلَام، وقد يَجتمِعانِ فتزدادُ الشَّناعةُ كما هو الشَّأنُ فيما نحنُ بصَددِه، فيقَعُ صاحبُه في قمَّةِ الكَذبِ، كما روَى مسلم (٨) عن أبي هُريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ قالَ: «**كفَى بالمَرءِ كذِبًا أَن يُحدِّثَ بكُلِّ مَا سمِعَ**»، ولهَذا لَعنَ اللهُ المتكلِّمَ بالظَّنِّ فقالَ: ﴿قُتِلَ ٱلْخَرَّٰصُونَ﴾ [الذاريات: ١٠]، وفي «تفسير ابن كَثير»: قالَ قَتادةُ: «الخرَّاصونَ: أَهلُ الغرَّة والظُّنونِ»، وقالَ مُجاهد: «الكذَّابونَ».

ولَا تَنافيَ بين التَّفسيرَين، بل بينَهما تلَازمٌ قويٌّ؛ وهو أنَّ الكذَّابَ إنَّما يَقعُ في الكَذبِ بالخَرص وهو الظَّنُّ الَّذي لَا دَليلَ علَيه، كما بيَّنَه الحَديثانِ النَّبويَّان الأَخيرانِ.

ولَا يَستعظمنَّ أَحدُكم أن سمَّاه النَّبيُّ ﷺ أَكذَبَ الحَديثِ؛ فإنَّ الرَّجلَ لَا يَفترُ يَفترِي الكَذبَ بتَتبُّع الظُّنونِ، بل الظَّنُّ السَّيِّءُ يُوقعُ صاحبَه في البُهتانِ؛ لأَنَّه يَرمِي المَظنونَ به بغيرِ ما اكتسَبَ بمجرَّد الظَّنِّ، واللهُ يَقولُ: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟

فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٨].

روَى مسلم (٦٦٨٥) عن أبي هُرَيرةَ أنَّ رَسولَ الله ﷺ قالَ: «**أتَدرونَ مَا الغِيبةُ**؟ قالوا: اللهُ ورَسولُه أَعلمُ، قالَ: **ذِكرُك أخاكَ بِمَا يَكرهُ**، قيلَ: أفرأَيتَ إِنْ كانَ في أخي مَا أَقولُ؟ قالَ: **إِنْ كانَ فيه مَا تَقولُ فَقدِ اغتَبتَه، وإِنْ لم يكُن فيه فَقد بَهتَّه**».

ولعلَّه مِن أَجْل أنَّ الإنسانَ الطَّاعنَ في عِرض أَخيه بغَيرِ حقٍّ لَا بدَّ له مِن الوُقوع في إحدَى هاتَين الكَبيرتَين: الغِيبةِ أو البُهتانِ المُتورِّط فيه سيِّءُ الظَّنِّ؛ جمعَ اللهُ بينَهما في سِياقٍ واحدٍ من كِتابِه فقالَ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

وتأمَّلْ تخلُّلَ التَّجسُّس بين هاتَين الكَبيرتَين؛ لأنَّ التَّجسُّسَ غايةُ مَطالبِ الظَّانِّ العيَّابِ، وأوَّلُ بوَّابةِ

المُغتابِ؛ لأنَّ صاحبَه يَبتغِي الظُّهورَ على العُيوبِ، ولو مسَّه في ذلكَ ما مسَّه مِن لُغوبٍ.

قالَ القاسِميُّ رحمه الله في «مَحاسن التَّأويل» (٩/ ٣٦٩٠): «ولمَّا كانَ مِن ثَمراتِ سوءِ الظَّنِّ التَّجسُّس، فإنَّ القلبَ لَا يَقنعُ بالظَّنِّ ويَطلبُ التَّحقيقَ فيَشتغلُ بالتَّجسُّس، ذكَر سُبحانه النَّهيَ عنه إثرَ سوءِ الظَّنِّ لذَلكَ فقالَ تَعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾».

قلتُ: فانظُرْ كيفَ تبع سوءَ الظَّنِّ كَبيرَتان هما التَّجسُّس والغِيبةُ؛ فإنَّ المرءَ إذَا ساءَ ظنُّه تجسَّسَ ليَتحقَّق، وإذَا تَحقَّق نشِطَ في الغِيبةِ، وهَذا هو تَرتيبُ جُمَل الآيةِ.

قالَ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمٰن السعدي رحمه الله في «تيسير الكَريم المنَّان» عندَ هَذه الآيةِ: «فإنَّ بَقاءَ ظنِّ السُّوء بالقَلب لَا يَقتصِرُ صاحبُه على مجرَّد ذلكَ، بل لَا يَزالُ به حتَّى يَقولَ ما لَا يَنبغِي ويَفعلَ ما لَا يَنبَغي»، وفِعلُ ما لَا يَنبغِي هنا هو التَّجسُّس، وقولُ ما لَا يَنبغِي هنا هو الغِيبةُ، وهَذا يُبيِّن سرَّ تَشديدِ الشَّريعةِ في خلُق سوءِ الظَّنِّ، واللهُ العاصِمُ.

ولخُطورةِ الأَمر فإنَّ الشَّيطانَ يَرتكِز على قَذفِ الظُّنونِ السَّيِّئة في القُلوبِ ارتِكازًا قويًّا، ومِن أَعجبِ ما رأيتُ في هَذا قصَّةُ زِيارةِ صفيَّة رضي الله عنها لزَوجِها رَسولِ الله ﷺ وهو في مُعتكَفِه، فقد روَى البخاري (٢٠٣٥) ومسلم (٥٧٣٠) عن صَفيَّةَ ابنةِ حُييٍّ قالَت: «كانَ رَسولُ الله ﷺ مُعتكِفًا، فأَتَيتُه أَزورُه لَيلًا فحدَّثتُه ثمَّ قُمتُ فانقلَبتُ فقامَ مَعي لِيَقلبَني - وكانَ مَسكنُها في دارِ أُسامةَ بنِ زَيدٍ - فمَرَّ رَجلَان مِن الأَنصارِ، فلمَّا رأَيا النَّبيَّ ﷺ أَسرَعا، فقالَ النَّبيُّ ﷺ: **على رِسْلِكما؛ إنَّها صَفيَّةُ بنتُ حُيَيٍّ!** فقالَا: سُبحانَ الله! يَا رَسولَ الله! قالَ: **إنَّ الشَّيطانَ يَجرِي مِنَ الإنسانِ مَجرَى الدَّمِ، وإنِّي خشِيتُ أَن يَقذفَ في قُلوبِكما سُوءًا أو قالَ: شَيْئًا**».

ووَجهُ العجَب فيها أنَّه يَستحيلُ أن يَظنَّ مُسلمٌ بالرَّسول ﷺ سوءًا، فكيفَ بصَحابيين؟! كما جاءَ في روايةٍ عندَ مسلم (٥٧٢٩) عن أَنسٍ أنَّ النّبيَّ ﷺ «كانَ معَ

إِحدَى نسائِه، فمَرَّ به رَجلٌ فدَعاه، فجاءَ فقالَ: **يَا فُلانُ!** **هَذِهِ زَوجَتي فُلانَةُ!** فقالَ: يَا رَسولَ الله! مَن كُنتُ أَظنُّ به فلم أَكُنْ أَظُنُّ بك!» الحديثَ، مع ذلكَ فقد خافَ ﷺ علَيهما من ذلكَ.

وفيه دلالةٌ صَريحةٌ على أنَّ الشَّيطانَ هو مُنشِّطُ الظُّنونِ السَّيِّئةِ، فأيُّ أَمانٍ يَأخذُه المرءُ لنَفسِه مِن الشَّيطانِ في هَذا البابِ؟! قالَ تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴾ [الإسراء: ٥٣].

قالَ ابنُ حجَر في «فتح الباري» (٤/ ٢٨٠): «والمُحصَّلُ مِن هَذِه الرِّوايات أنَّ النَّبيَّ ﷺ لم يَنسبهُما إلى أنَّهُما يَظنَّانِ به سوءًا لِما تَقرَّرَ عِنده مِن صِدقِ إِيمانِهما، ولكِنْ خَشيَ علَيهما أَن يُوَسوِسَ لَهُما الشَّيطانُ ذَلِك؛ لأَنَّهما غَيرُ مَعصومَين، فَقد يُفضي بهمَا ذَلكَ إلى الهَلاكِ، فَبادَرَ إلى إِعلامِهما حَسمًا لِلمادَّةِ، وتَعليمًا لِمَن بَعدَهما إذَا وقَعَ له مِثلُ ذَلكَ، كَما قالَه الشَّافعيُّ رَحِمَهُ الله تَعالَى، فقَد رَوَى الحاكِم

أنَّ الشَّافعيَّ كانَ في مَجْلِس ابن عُيَينةَ فسَألَه عَن هَذا الحَديث؟ فقالَ الشَّافِعِيُّ: إنَّما قالَ لَهما ذَلكَ لأَنَّهُ خافَ علَيهمَا الكُفرَ إن ظنَّا به التُّهمةَ، فَبادرَ إلى إعلامِهما نَصيحةً لهمَا قَبل أن يَقذِفَ الشَّيطانُ في نُفوسِهما شَيئًا يَهلِكان به...

وفي الحَديث من الفَوائد: ...بَيان شَفقَتِه ﷺ على أُمَّته وإرشادهم إِلَى مَا يَدفعُ عنهُم الإِثمَ، وفيهِ التَّحرُّز مِن التَّعرُّض لسوءِ الظَّنِّ والاحتِفاظُ مِن كَيدِ الشَّيطان والاعتِذار، قالَ ابن دَقيق العِيد: وهَذا مُتأكِّدٌ في حَقِّ العُلماء ومَن يُقتدَى به فلا يَجوزُ لَهم أن يَفعَلوا فِعلًا يوجِب سُوءَ الظَّنِّ بهم وإِن كانَ لَهم فيهِ مَخْلَص؛ لأَنَّ ذَلكَ سببٌ إلى إِبطال الانتِفاع بعِلمِهم».

ويَجبُ على المتكلِّم في غيرِه بمُجرَّد الظَّنِّ أن يَعلمَ أَنَّه مُتعرِّضٌ لعِرضٍ مَصونٍ؛ فقد «نظَر رَسولُ الله ﷺ إلى الكَعبةِ فقالَ: مَرحبًا بكَ مِن بيتٍ ما أَعظمَك وأَعظمَ حُرمتَك، ولَلمؤمنُ أَعظمُ حُرمةً عندَ الله منك؛ إنَّ اللهَ حرَّم

منك واحدةً وحرَّم مِن المؤمنِ ثلاثًا: دمَه ومالَه وأن يُظنَّ به ظنُّ السُّوء» رواه البيهقيُّ في «الشُّعب» (٦٧٠٦)، وصحَّحه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٣٤٢٠)، فقد دلَّ هَذا على أنَّ تَعظيمَ حُرمةِ المؤمنِ تَكونُ بإحسانِ الظَّنِّ به كما فسَّرَه قَتادةُ رَحِمَهُ اللَّهُ.

روَى أبو الشَّيخ في «التوبيخ والتنبيه» (١٤٣) بإسنادٍ صَحيحٍ عن قتادة قالَ: «والله! لقَد عظَّمَ اللهُ حُرمةَ المؤمنِ حتَّى يقالَ: أن تَظنَّ بأَخيكَ إلَّا خيرًا، فقالَ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠]».

وقالَ ابن دقيق العيد في «الاقتراح» (٣٤): «أَعراضُ المسلِمينَ حُفرةٌ مِن حُفَر النَّار، وقفَ على شَفيرِها طائِفتانِ مِن النَّاس: المحدِّثونَ والحكَّامُ»، ومعنَى الحكَّام القُضاةُ ومَن في مَعناهم.

وقد خصَّ هاتَين الطَّائفتَين بالذِّكرِ لأنَّهما أَكثرُ النَّاس تَعرُّضًا لأَعراض النَّاس للحاجةِ أو الضَّرورةِ، فالمُحدِّثون

يَتكلَّمون في رُواةِ الحَديثِ جَرحًا وتَعديلًا صِيانةً لحَديثِ رَسولِ اللهِ ﷺ، والقُضاةُ يَحكُمون في أَموالِ النَّاس وأَعراضِهم ودِمائِهم، ولذلكَ كانُوا أَحوجَ النَّاس إلى التَّثبُّت.

وفي «السِّيَر» للذَّهبي (١٠/ ١٥٤) أنَّ الإمامَ أحمد ﵀ قالَ: «مَا رَأيتُ رجلًا أَوزنَ بقَومٍ مِن غَير مُحاباةٍ وأشدَّ تثبُّتًا في أُمورِ الرِّجالِ مِن يحيَى بن سَعيدٍ!».

ومِن التَّطبيقاتِ النَّبويَّةِ لخُلق حُسن الظَّنِّ بالغَير ما رَواه البخاري (٦٥٢٥) ومسلم (٤٧٤٥) والنَّسائي (٥٣٨٢) - واللَّفظُ له - عن أَبي موسَى قالَ: «أَتاني ناسٌ مِن الأَشعَرِيِّينَ فقالُوا: اذهَبْ معَنا إلى رَسولِ الله ﷺ فإنَّ لَنا حاجَةً، فذَهَبتُ معهُم فَقالوا: يَا رَسولَ الله! استعِنْ بنَا في عَملِك، قالَ أَبو موسَى: فَاعتذَرتُ ممَّا قالوا وأَخبَرتُ أنِّي لَا أَدري مَا حاجتُهم، **فصدَّقَني وعذَرَني**، فقالَ: **إنَّا لَا نَستعِينُ في عَملِنا بمَن سَألَنا**».

ففي هذه القصَّة أنَّ قومَ أبي موسَى ﵁ طَمعوا أن

يؤمِّرَهم الرَّسولُ ﷺ على بَعض المَسئوليَّاتِ وتشفَّعوا بأبي موسَى في الدُّخولِ على رَسولِ الله ﷺ ولم يُخبِروه بحاجتِهم، فلمَّا أَفصَحوا عندَه بمُرادِهم جعَلَ أبو موسَى يَعتذرُ لِعلمِه بأنَّ الرَّسولَ ﷺ كانَ يَكرهُ أن يَطلبَ الرَّجلُ الإمارةَ لِما في ذلكَ من المُخاطرةِ بعدَم الوَفاءِ بحقِّها، وقد قَبِل الرَّسولُ ﷺ عُذرَه ولم يتَّهِمه بأنَّه أَخذَته حميَّةٌ قَومِه في الشَّفاعةِ لهم في شيءٍ لَا يُحبُّه ﷺ، وهَكذا فَليَكن أَهلُ الخلُق الحسنِ المُقتدونَ برَسولِ الله ﷺ.

ومِن تَطبيقاتِ السَّلفِ لهَذا الخلُقِ النَّبويِّ أنَّ عُمرَ بن الخطَّابِ رضي الله عنه لمَّا بلغَه أنَّ ناسًا من الكوفة طعَنوا على ولايةِ سَعد بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه بادرَ إلى التَّحقُّق لأَنَّه المسئولُ الأوَّلُ عمَّا يَقعُ في دَولتِه مع حُسنِ ظنِّه بسَعدٍ، ولَمَّا بيَّنَ له سعدٌ قالَ عمرُ: «ذاكَ الظَّنُّ بكَ يا أَبا إسحَاقَ!» رواه البُخاري (٧٥٥) ومسلم (٩٤٨).

قالَ ابن حجَر في «الفتح» (٢/ ٢٣٨): «قولُه: (يا أَبَا إسحَاق): كنَّى بذَلكَ بأَكبرِ أَولادِه، وهَذا تَعظيمٌ من عُمرَ له، وفيه دلالةٌ على أنَّه لم تَقدَح فيه الشَّكوَى عندَه»، وقالَ (٢/ ٢٤١): «فيه الاعتِذارُ لَمَن سُمعَ في حقِّه كلامٌ يَسوؤُه».

ولَا بأسَ أن أَسوقَ القصَّةَ بتَمامِها مع شيءٍ ممَّا يَخصُّنا من فَوائدِها، روَى البُخاري (٧٥٥) ومسلم (٩٤٨) عن جابرِ ابن سَمُرة قالَ: «شَكا أهلُ الكوفَةِ سَعدًا إلى عُمرَ رضي الله عنه فعَزلَه واستَعمَلَ علَيهم عمَّارًا، فشكَوا حتَّى ذَكروا أنَّه لَا يُحسنُ يُصلِّي، فأَرسلَ إلَيه فقالَ: يَا أَبا إسحاقَ! إنَّ هَؤلَاء يَزعُمونَ أنَّكَ لَا تُحسنُ تُصلِّي؟ قالَ أبو إسحَاقَ: أمَّا أنَا - واللهِ!- فإنِّي كُنتُ أصلِّي بهم صَلاةَ رَسولِ اللهِ ﷺ مَا أَخْرِمُ عنها، أُصلِّي صَلاةَ العِشاءِ فأَركُدُ في الأُولَيَين وأُخِفُّ في الأُخريَيْن، قالَ: ذاكَ الظَّنُّ بكَ يا أَبا إسحَاقَ! فأَرسلَ معهُ رَجلًا أو رِجالًا إلى الكوفَةِ فسأَلَ عنه أَهلَ الكوفَةِ، ولم يدَعْ مَسجدًا إلَّا سأَلَ عنه ويُثْنون مَعروفًا، حتَّى دخَلَ مَسجدًا

لِبني عَبسٍ، فقامَ رجُلٌ منهم يقالُ له أُسامةُ بنُ قَتادةَ يُكْنَى أبا سَعدةَ قالَ: أَمَّا إذ نَشَدتَنا، فإنَّ سَعدًا كانَ لَا يَسيرُ بالسَّرِيَّةِ، ولَا يَقْسِمُ بالسَّوِيَّةِ، ولَا يَعدلُ في القَضيَّةِ، قالَ سَعدٌ: أمَا - واللهِ! - لأَدْعُوَنَّ بثلاثٍ: اللَّهمَّ إن كانَ عَبدُكَ هَذا كاذِبًا قامَ رِياءً وسُمعةً فأَطِلْ عُمرَه، وأَطِلْ فَقرَه، وعرِّضْه بالفِتَنِ، وكانَ بَعدُ إذَا سُئل يقولُ: شيخٌ كبيرٌ مَفتونٌ أصابَتْني دعوَةُ سَعدٍ! قالَ عبدُ المَلك بن عُمير: فأَنا رَأَيتُه بَعدُ قَد سَقطَ حاجِباه على عَينَيه مِن الكِبَرِ، وإنَّه لَيتعرَّضُ لِلجَواري في الطُّرقِ يَغمزُهنَّ».

هَذا هو شَأنُ النَّاس في إذاعةِ الشَّرِّ إلَّا ما رحِمَ ربِّي، على الرغم من أنَّ المتكلَّمَ فيه هو سَعدُ بن أبي وقَّاصٍ رضي الله عنه أَحدُ العشَرةِ المبشَّرين بالجنَّة، بل وقعَ في رِوايةٍ عند البخاري (٧٧٠) ومسلم (٩٥١) أنَّ عمرَ قالَ له: «لقد شَكَوك في كلِّ شيءٍ حتَّى الصَّلاة»!

وأمَّا عن عَزلِ عُمرَ إيَّاه على الرغم مِن عدَم ثُبوتِ التُّهمةِ في حقِّه، فقد قالَ النَّووي رحمه الله في «شرح صحيح مسلم» (٤/ ١٧٦): «فيه أنَّ الإِمامَ إذَا شكَى إلَيه نائِبُه بَعثَ إلَيه واستَفْسَره عن ذَلك، وأنَّه إذَا خافَ مفسَدةً باستِمرارِه في وِلايتِه ووُقوعَ فِتنَةٍ عَزلَه، فلِهذا عزَلَه عُمرُ رضي الله عنه مع أَنَّه لم يَكُن فيه خَللٌ ولم يَثبت ما يَقدحُ في وِلايتِه وأهليَّتِه، وقد ثَبتَ في صَحيح البُخارِيِّ في حَديث مَقتَل عُمر والشُّورَى أنَّ عُمر رضي الله عنه قالَ: إنْ أَصابَت الإِمارةُ سَعدًا فذَاكَ وإلَّا فَلْيستعِنْ به أيُّكم مَا أُمِّر؛ فإنِّي لم أَعزِله مِن عَجزٍ ولَا خِيانةٍ».

وأخرجَ البُخاري في «الأدب المفرد» (١٢٨٩) - وصحَّحه الألبانيُّ في تحقيقِه له (٩٧٩) - عن عبد الله بن مَسعودٍ رضي الله عنه أنَّه قالَ: «ما يَزالُ المسروقُ منه يَتظنَّى حتَّى يَصيرَ أَعظمَ مِن السَّارقِ»، ومَعناه أنَّ المَسروقَ يجلسُ يُفكِّر فيمَن سرقَه ويَشكُّ حتَّى ربَّما اتَّهمَ الأَبرياءَ فيَعظمُ بذلكَ ذَنبُه حتَّى يَكونَ أَعظمَ من ذَنبِ السَّارقِ، واللهُ المُستَعانُ.

أسبابُ الوُقوع في سوءِ الظَّنِّ

أُجملُ هاهنا أَسبابَ وُقوع النَّاس في سوءِ الظَّنِّ في ذكرِ بَعضِها:

١- غالبًا ما تُساءُ الظُّنونُ بين النَّاس بسببِ خُصومةٍ بينَهم، فلذَلكَ ما يُذاعُ خبرٌ سيِّءٌ عن خُصومِهم إلَّا تلقَّفوه بآذانٍ واعيةٍ، وأَخلاقٍ واهيةٍ؛ إذ لو كانُوا يَصدرونَ عن خلُقٍ لَمَا استَسلَموا للظَّنِّ والهوَى؛ واللهُ ﷻ يقولُ: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وكلامُنا هُنا عن ظنٍّ استَولدَه تَنازعٌ مُحتدمٌ، خالطَه حِقدٌ مُستحكِمٌ، انتهَى إلى شَهوةٍ غضبيَّةٍ، تُغلَقُ عندَها العقولُ البَشريَّة، لَا سيما إذَا كانَ في أحدِ جانبَي الخلَافِ حَميمٌ أو قَريبٌ، فإنَّ أَكثرَ الخَلقِ يَفقِدونَ تَوازنَهم عندَه حتَّى يَكونُوا مع حَميمِهم وقَريبِهم بلَا حجَّةٍ، بل تَجاوبًا مع الحميَّةِ الجاهليَّة الَّتي نَعاها اللهُ على الكفَّارِ فقالَ: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٦].

فالمؤمنُ رَزينٌ مُتثبِّتٌ يَتحرَّى الصِّدقَ ويَتحكَّم في نَفسِه ويُراقبُ كلِماتِه، قالَ تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقالَ: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِٱلْقِسْطِ﴾ [الأعراف: ٢٩].

والتَّبيُّنُ في ذلكَ هو طَريقةُ أَهل العَدْل ولو مع العدوِّ البيِّن؛ كما قالَ ﷻ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

وقد أمرَ اللهُ ﷻ نبيَّه ﷺ وصحابتَه الكِرامَ أن يَكونُوا عُدولًا حتَّى مع مَن صدَّهم عن المَسجدِ الحَرام فقالَ: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٢]، فأَكثرُ مَقولاتِ النَّاس في مُخالِفيهم لَا يَعلَمونَ صِدقَها مِن كَذبِها، مع ذلكَ فيُسارِعونَ إلى تَصديقِها بل ونَشرِها إذَا كانَت لهم، وما حمَلَ الكَثيرَ منهم على ذلكَ إلَّا الحميَّةُ الَّتي تَفرزُها الخُصوماتُ.

٢- تَساهلُ بَعض النَّاس في إساءةِ الظَّنِّ بغَيرِهم قد يَكونُ ناتجًا عن سوءِ فِعالِهم؛ فهُم كما قيلَ: ودَّت الزَّانيةُ لو أنَّ النَّاسَ جَميعًا زنَوا، وقَريبٌ منه قَولُهم: ما فِيك ظهَرَ على فيك، لَا سيما إن أَرادَ الواحدُ مِنهم أن يُكثِّرَ سَوادَه بتكثيرِ المُصابِين بمِثل سَيِّئاتِه لتَخفَّ وَطأتُها على قلبِه حينَ يُشارِكُه فيها غيرُه، من بابِ قَولِهم: المصيبةُ إذَا عمَّت خفَّت، ولذلكَ ما تَبلغُهم سيِّئةٌ عن أحدٍ إلَّا استَسهلوا تَصوُّرَها فيه لاستِسهالِهم العملَ بها في أَنفسِهم، كما قيلَ:

إذَا ساءَ فِعلُ المرءِ ساءَتْ ظُنونُه
وصدَّقَ ما يَعتادُه مِن تَوَهُّم

وقد قالَ بَعضُهم في شَرحِه: «لمَّا قَبحَت فعلاتُه، وحَنظلَت نخلاتُه، لم يزَلْ سوءُ الظَّنِّ يَقتادُه، ويُصدِّق توَهُّمه الَّذي يَعتادُه».

مع أنَّ الاشتِراكَ في السُّوءِ لَا يُنجِي ممَّا يَسوءُ يومَ تَجدُ كلُّ نفسٍ ما عمِلَت مِن خيرٍ مُحضرًا وما عَملَت مِن سوءٍ؛

لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿ وَلَن يَنفَعَكُمُ ٱلْيَوْمَ إِذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي ٱلْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٩].

٣- مِن النَّاس مَن يرَى ضَرورةَ التَّفطُّن لَمكائدِ غيرِه، فيَلتبِس علَيه أَمرُ التَّكيُّس وسُرعةُ الفِطنةِ مع اتِّباع الظُّنونِ المَرجوحةِ، ويتعذَّرُ علَيه الجمعُ بَين التَّيقُّظ للعدوِّ - الَّذي جاءَ تَسميتُه في بَعض الآثارِ بالحَزم - وبين عَدلِه فيه إلَّا بنَوع ظُلمٍ للمَظنونِ به، فكَم دفعَ تعجُّلُه لكَشف عَيبِ مَن اسودَّ قلبُه علَيه إلى الجِنايةِ على نَفسِه بالمشيِ في النَّاس بـ (قيلَ وقالَ)، ولو تيقَّن أنَّ الماكرَ به لَا يَطولُ به الزَّمانُ حتَّى يَرجعَ مَكرُه علَيه لَمَا قَفَا ما ليسَ له به عِلمٌ؛ لأنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، بل مَهْما كتمَ الماكِرُ مَكرَه فضحَه اللهُ ولو بعدَ حينٍ؛ كما قالَ ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ [البقرة: ٧٢]، وقالَ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴾ [التوبة: ٦٤]، فتكونُ النَّتيجةُ: التَّعامل مع الظُّلم بالظُّلم! فمتَى يُنصَر إذَن؟!

والمُسيءُ الظَّنَّ بغيرِه بلَا بيِّنةٍ وتَعاملُه معَهم بالتُّهم ظلمٌ، ومَعلومٌ أنَّ المظلومَ مَنصورٌ ولو كانَ كافرًا، وقد حصَل ما يدلُّ علَيه في العَهدِ النَّبويِّ، بحيثُ اتُّهمَت مَملوكةٌ كافرةٌ بسرِقةِ حُليٍّ وهيَ بَريئةٌ، روَى البُخاري (٤٣٩) عن عائشةَ أنَّ وَليدةً كانَت سَوداءَ لِحيٍّ مِن العَربِ، فأَعتَقوها فكانَت معَهم، قالَت: فخَرجَت صبيَّةٌ لَهم علَيها وِشاحٌ أَحمرُ مِن سُيورٍ(١)، قالَت: فوَضعَته أو وَقعَ منهَا، فمرَّتْ به حُدَيَّاةٌ(٢) وهو مُلقًى فحَسِبتَه لحمًا فخَطفَته، قالَت: فالْتمَسوه فلم يَجدوه، قالَت: فاتَّهَموني به، قالَت: فطَفِقوا يُفتِّشون حتَّى فتَّشوا قبُلَها، قالَت: واللهِ! إنِّي لَقائمةٌ معَهم إذ مرَّتِ الحُدَيَّاةُ فأَلقَته، قالَت:

---

(١) قالَ ابن حجَر في «الفتح» (١/ ٥٣٤) في تَعريفِ الوِشاح: «خَيطانِ مِن لُؤلؤٍ يُخالَف بينَهما وتتوَشَّح به المرأةُ، وقيلَ: يُنسجُ مِن أَديمٍ عَريضًا ويُرصَّع باللُّؤلؤ وتشدُّه المرأةُ بين عاتقِها وكَشحِها» أي إلى الخاصِرة.

(٢) وفي «الفتح» أيضًا: «تَصغيرُ حِدَأَة بالهمز بوَزنِ عِنَبَة ويجوزُ فتحُ أوَّلِه، وهيَ الطَّائرُ المعروفُ المأذونُ في قَتلِه في الحِلِّ والحَرَم».

فوقَعَ بَينَهم، قالَت: فقُلتُ: هَذا الَّذي اتَّهمتُموني به - زعَمتُم - وأَنا مِنه بَريئةٌ وهُوَ ذَا هُوَ! قالَت: فجاءَت إلى رَسولِ الله ﷺ فأَسلمَتْ.

قالَت عَائشةُ: فكانَ لهَا خِباءٌ في المسجدِ أو حِفْشٌ[1]، قالَت: فَكانَت تَأتيني فتَحدَّثُ عِندِي، قالَت: فلَا تَجلسُ عندِي مجلسًا إلَّا قالَت:

ويَومَ الوِشاحِ مِـن تَعاجِيـبِ رَبِّنـا

أَلَا إنَّـه مِـن بَلـــدةِ الكُفـرِ أَنجــاني

قالَت عائِشةُ: فقُلتُ لَها: مَا شَأْنُك لَا تَقعدِينَ مَعي مَقعدًا إلَّا قُلتِ هَذا؟ قالَت: فحدَّثَتني بهَذا الحَديثِ».

لعلَّ هَذه الوَليدةَ رأَت أَنَّه ليسَ مِن صالِح الأَخلاقِ أن تُتَّهم بمجرَّد الظَّنِّ وأن تُهانَ حتَّى تُفتَّش بتلكَ الطَّريقةِ، فأَحزنَها ذلكَ حتَّى برَّأَها اللهُ بطَريقةٍ عَجيبةٍ، وكانَ ذلكَ

---

(١) وفي «الفتح» أيضًا: «والخِباءُ: الخيمةُ مِن وَبَرٍ أو غَيرِه... والحِفْش: البيتُ الصَّغيرُ القَريبُ السُّمك».

سببَ إسلَامِها؛ لأنَّها علمَت أنَّه لن تَكونَ مِثلُ هَذه التَّبرئةِ إلَّا مِن فِعل الله؛ لأنَّه يوجَد في السَّماءِ الأُلوفَ المؤلَّفةَ من الطُّيورِ، فكيفَ يَأتي ذلك الطَّائرُ السَّارقُ نفسُه مِن بينِها ليَضعَ الوِشاحَ بين يدَي المتَّهمين لولَا أنَّ اللهَ هو الآمرُ له!

قالَ ابن رجب في «فتح الباري» (٣/ ٢١٩): «وفي الحديثِ دَليلٌ على أنَّ اللهَ تعالى قد يُفرِّج كُرباتِ المكروبين ويخرقُ لهم العَوائدَ وإن كانُوا كفَّارًا... فإن كانَ الكافرُ مَظلومًا كهَذهِ المرأةِ فهو أَقربُ إلى تَفريج كُربتِه وإجابةِ دَعوتِه؛ فإنَّ دَعوةَ المظلوم قد تُجابُ مِن الكافرِ».

واعلَمْ أنَّ كلَّ كَلمةٍ تُقالُ أو تُكتبُ في مَقالٍ يَنقلُها أَمنةٌ كِرامٌ كاتِبون إلى الحَكَم العَدْل المُتعالِ الَّذي قالَ: ﴿ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ [ق: ١٨]، وما يتحمَّلُه الفؤادُ مِن خبرٍ، وما يَشهدُ به السَّمعُ والبصَرُ، إلَّا سُئل عنه صاحبُه يومَ تَشخصُ الأَبصارُ، ولَا يَنفعُ فيهِ ندَمٌ ولَا استِغفارٌ؛ قالَ اللهُ ﷻ: ﴿ وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ

كُلُّ أُوْلَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقالَ: ﴿سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ١٩].

وقد مرَّ بنا أنَّ اتِّباعَ الأَخبارِ غيرِ الثَّابتةِ بالدَّليل الواضِح يُعتبرُ عندَ رَسولِ الله أَكذبَ الكَذبِ، ومرَّ بنا قولُه ﷺ: «**كفَى بالمَرءِ كذِبًا أَن يُحدِّثَ بكُلِّ مَا سمِعَ**».

وإذَا كانَ في إثم هَذا الكَذبِ كِفايةٌ، فكيفَ يَطمعُ المُؤمنُ أن يَرفعَ اللهُ عنه ظُلمَ خَصمِه وقد شبعَ إِثمًا بظُنونِه واكتفَى؟!

علاجُ سوءِ الظَّنِّ

١ - أن يَتثبَّت قبلَ أن يَحكمَ على غَيرِه، فإنَّ العجلةَ قد تَستفزُّ صاحبَها ليَقولَ ما ليسَ له به عِلمٌ، ثمَّ سُرعانَ ما يَندمُ ويَأخذُ في البَحثِ عن الأَعذارِ، لكِنَّ الكَلمةَ إذَا خرجَت مِن خِدرِها صَعبَ تَدارُكُها.

فعن أبي أيُّوبَ قالَ: «جاءَ رَجلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقالَ: يَا رَسولَ الله! علِّمني وأَوجِزْ، قالَ: **إذَا قُمتَ في صَلاتِك فصَلِّ صلاةَ مودِّعٍ، ولَا تَكلَّمْ بكلَامٍ تَعتذِرُ منه، وأَجمِعِ اليأسَ عمَّا في أَيدِي النَّاسِ**» أخرجَه ابن ماجه (٤١٧١) وحسَّنه الألبانيُّ.

وقد يَزيدُ على هَذه السَّيِّئةِ البَحثَ عن المَخارج عند الاعتِذارِ ولو بالكَذبِ؛ لأنَّه «قلَّ مَن اعتذَرَ إلَّا كَذبَ»، قالَه مَيمونُ بن مِهران رحمه الله رواه عنه الخَرائطي في «مساوئ الأخلاق ومذمومها» (٦٨٣)، فتأمَّل كيفَ جرَّ كلامٌ غيرُ متثبَّتٍ فيه إلى سوءِ ظنٍّ، ثمَّ الطَّعنِ في عِرضٍ مَصونٍ، ثمَّ

الكَذب، واللهُ المُستعانُ.

قالَ ابنُ حجَر رحمه الله: «إنَّ الَّذي يَتصدَّى لضَبطِ الوَقائع من الأَقوالِ والأَفعالِ والرِّجالِ يَلزمُه التَّحرِّي في النَّقل، فلَا يجزِم إلَّا بما يَتحقَّقه، ولَا يَكتفِي بالنَّقل الشَّائع...» نقلًا عن «ذَيل التِّبر المسبوك» للسَّخاوي (ص ٤).

فإذَا كانَ الوَصفُ السَّيِّءُ لخَصمِه مَبنيًّا على «قِيلَ وقالَ» فقد غمَسَ لِسانَه في بِركةِ الأَوهام، وإن كانَ صادقًا فقَد نحَّى عنه من سيِّئاتِه بقَدْر ما أَعطاه مِن حسَناتِه؛ لأنَّ الكلامَ فيهِ لو كانَ صِدقًا لكانَ إثمًا من جهةِ الغِيبةِ والنَّميمةِ كما مرَّ في هَذا الكِتابِ، فكيفَ وقد يَكذبُ منه الكَثيرُ؟!

وقد نهَى النَّبيُّ ﷺ عن الاعتِمادِ على ما يُزعَم من غيرِ تثبُّتٍ؛ سُئل أبو مَسعودٍ رضي الله عنه: «مَا سَمعتَ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ في (زَعَموا)؟ قالَ: سمِعتُ رَسولَ الله ﷺ يَقولُ: بِئسَ مطِيَّةُ الرَّجلِ زَعمُوا» رواه أبو داود (٤٩٧٤) وصحَّحَه الألبانيُّ في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٨٦٦).

قال البغَوي في «شرح السُّنة» (١٢/ ٣٦٢): «فأمَر النَّبيّ ﷺ بالتَّثبُّت فيمَا يحكِيه، والاحتِياطِ فيما يروِيه».

قالَ الشَّيخُ عبدُ الرَّحمن بنُ ناصِر السعدِي رحمه الله في «الرِّياض النَّاضرة» (ص ٢٠٩): «مِن الغلَط الفاحِش الخطِر قَبولُ قَول النَّاس بَعضِهم ببَعضٍ، ثمَّ يَبنِي علَيه السَّامعُ حبًّا وبُغضًا، ومَدحًا وذمًّا، فكَمْ حصَل بهَذا الغلَطِ مِن أُمورٍ صارَ عاقبتُها النَّدامةَ! وكَم أَشاعَ النَّاسُ عن النَّاس أُمورًا لَا حَقيقةَ لها بالكلِّيَّة! فالواجبُ على العاقلِ التَّثبُّتُ والتَّحرُّزُ وعدمُ التَّسرُّع، وبهَذا يُعرَف دينُ العبدِ ورَزانتُه وعَقلُه».

وقد قيلَ:

فما آفةُ الأَخيـارِ إلَّا غُواتُهـا   وما آفةُ الأَخبـارِ إلَّا رُواتُهـا

هَذا إن كانَ بحاجةٍ إلى تثبُّتٍ؛ إذ ليسَ كلُّ ما أُسندَ إلى النَّاس احتِيجَ فيه إلى التَّثبُّت؛ لأَنَّه قد يَسعُه الاكتِفاءُ بالآتِي:

٢- أن يَلتمسَ المُسلمُ لأَخيه الأَعذارَ ما استَطاعَ إلى

ذلكَ سَبيلًا، وهَذا شيءٌ تَجودُ به النُّفوسُ المُنشرِحةُ للخَيرِ، ذات الأَفئدةِ الفيَّاضةِ بالرَّحمةِ للغَير.

فقد أخرجَ ابن أبي الدُّنيا في «مداراة النَّاس» (٤٥) والمحاملي في «أماليه» (٤٤٧) عن عمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه أنَّه قالَ: «لَا تَظنَّنَّ بكَلمةٍ خرجَت مِن في امرئٍ مُسلمٍ سوءًا وأنتَ تجدُ لها في الخَيرِ محملًا»، وذكرَ السيوطي في «الدُّر المنثور» أنَّ أحمدَ أَخرجَه في «الزهد»، وهو أثرٌ صَحيحٌ؛ فقد رَواه أيضًا - ضِمنَ كلامٍ كَثيرٍ - الخطيبُ البَغدادي في «المتفق والمفترق» (١٤١) وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٤٤/ ٣٦٠) وابن النَّجَّار كما في «ذيل تاريخ بغداد» (١٧/ ٢٣١) والزُّبير بن بكَّار في «الموَفَّقيَّات» كما في «الدُّر المنثور» بإسنادٍ حسنٍ عن سَعيد بن المسيب قالَ: «وَضعَ عُمرُ بن الخطَّاب رضي الله عنه للنَّاس ثمان عَشرة كَلمةً حِكمٌ كلُّها، قالَ: ما عاقَبتَ مَن عصَى اللهَ فيكَ بمِثل أن تُطيعَ اللهَ فيه، وضَعْ أمرَ أخيكَ على أَحسنِه حتَّى يَجيئَك منه ما

يَغلبُك، ولَا تَظنَّنَّ بكَلمةٍ خرجَت مِن مُسلم شرًّا وأنتَ تجدُ لها في الخَيرِ محملًا، ومَن عرَّض نفسَه للتُّهمةِ فلَا يَلومنَّ مَن أَساءَ به الظَّنَّ، ومَن كَتمَ سرَّه كانَت الخِيرةُ في يدِه، وعلَيك بإِخوانِ الصِّدقِ تَعِش في أَكنافِهم؛ فإنَّهم زينةٌ في الرَّخاءِ وعُدَّةٌ في البلاء، وعليكَ بالصِّدقِ وإن قَتلَك، ولَا تَعْرض فيما لَا يَعْني، ولَا تَسأل عمَّا لم يَكُن؛ فإنَّ فيما كانَ شُغلًا عمَّا لم يَكُن، ولَا تَطلبنَّ حاجتَك إلى مَن لَا يحبُّ نجاحَها لك، ولَا تهاوَنْ بالحلفِ الكاذبِ فتَهلِك، ولَا تَصحَب الفجَّارَ لتَعلَّمَ مِن فُجورِهم، واعتَزِل عدوَّك، واحذَرْ صديقَك إلَّا الأَمين، ولَا أَمين إلَّا مَن خشي اللهَ، وتخشَّع عند القُبورِ، وذلَّ عند الطَّاعةِ، واستَعصِم عند المصيبةِ، واستشِرْ في أمرِك الَّذينَ يَخشَون الله؛ فإنَّ اللهَ يَقولُ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨]»، وأخرجَه البيهقي في «الشعب» (٨٣٤٥) عن سَعيد بن المسيب قالَ: «كَتب إليَّ بعضُ إخواني مِن أَصحابِ

رَسولِ الله ﷺ ...» وذكرَه نحوَ الأثرِ السَّابقِ.

ورَوَى أبو الشَّيخ في «التَّوبيخ والتَّنبيه» (١٤٧) وأبو نعيم (٥/ ٢٧٧) بسندٍ صَحيحٍ أنَّ عُمرَ بن عَبد العَزيز كانَ يَقولُ: «أَحسِن بصاحبِك الظَّنَّ ما لم يَغلِبك».

وفي «الإشراف على منازل الأشراف» (٢١٦) و«مداراة النَّاس» (٣٩) كلَاهما لابن أبي الدنيا عن عَبد العَزيز بن عُمر بن عَبدِ العَزيز رحمه الله قالَ: قالَ لي أبي: «يَا بُني! إذَا سَمعتَ كَلمةً مِن امرئٍ مُسلمٍ فلَا تَحمِلها على شيءٍ مِن الشَّرِّ ما وَجدتَ لها مَحملًا مِن الخَير» وسندُه صَحيحٌ لولَا عَنعنة ابن جُريج، لكن تابعَه عُمرُ بن حَفص عندَ أبي نُعيم في «الحلية» (٥/ ٢٧٧).

وفي «مداراة النَّاس» أيضًا (٤١) عنه أنَّه قالَ: «أَعقلُ النَّاس أَعذرُهم لهم».

وفيه أيضًا (٤٠) وفي «الزهد» لهنَّاد (١٢٢٥) و«أمالي ابن سمعون» (١٤١) و«شعب الإيمان» للبَيهقي (٨٣٣٦)

عن أبي قِلابةَ قالَ: «التَمِسْ لأخِيك العُذرَ بجهدِك، فإن لم تجِدْ له عذرًا فقُلْ: لعلَّ لأخِي عُذرًا لَا أَعلمُه».

وفي «الشعب» أيضًا (٨٣٤٢) و«التَّوبيخ والتَّنبيه» لأبي الشَّيخ (٩١) عن ابن سِيرين رحمه الله مِثله.

وفي «الشعب» أيضًا (٨٣٤٤) عن جَعفر بن محمَّدٍ قالَ: «إذَا بَلغَك عن أخِيك الشَّيءُ تُنكرُه فَالتمِس له عُذرًا واحدًا إلى سَبعِين عُذرًا، فإن أَصبتَه وإلَّا قُلْ: لعلَّ له عُذرًا لَا أَعرفُه».

وفي «آداب الصُّحبة» لأبي عَبد الرَّحمنِ السُّلمي (١٢) وعنه البيهقي في «الشعب» (١١١٩٨) عن حمدون القصَّار قالَ: «إذَا زلَّ أخٌ مِن إخوانِكم فَاطلُبوا له سَبعِين عُذرًا، فإن لم تَقْبله قُلوبُكم فَاعلَموا أنَّ المَعيبَ أَنفسُكم؛ حيثُ ظهرَ لمسلمٍ سَبعونَ عُذرًا فلم تَقْبله»، فانظُرْ كيفَ تَواصَى السَّلفُ بهَذه الكَلمةِ!

وهَذا شَبيهٌ بما رَواه في «آداب الصحبة» أيضًا (١١) عن

عَبدِ الله بن محمَّدٍ بن منازل قالَ: «المؤمنُ يَطلبُ مَعاذيرَ إخوانِه، والمنافقُ يَطلبُ عَثراتِ إِخوانِه»، ولذَلكَ قيلَ: المؤمنُ مِعذارٌ، والمنافقُ مِعثارٌ.

وأخرج ابن سعد (٧/ ٢٠٩) بسندٍ حسنٍ أنَّ بَكرًا المُزنيَّ كانَ يَقولُ: «إيَّاكَ مِن كلامٍ ما إن أَصبتَ فيه لم تُؤجَر، وإن أَخطأتَ وَزرتَ، وذلكَ سوءُ الظَّنِّ بأَخيكَ»، وعنه كما في «التَّوبيخ والتَّنبيه» (٩٢) قالَ: «احمِلوا إِخوانَكم على ما كانَ فيهم، كما تُحبُّون أن يَحمِلوكم على ما كانَ فيكُم، فليسَ كلُّ مَن رَأيتَ منه سَقطةً أو زلَّةً وقعَ مِن عَينَيك؛ فأنتَ أولَى مَن يُرَى ذاكَ مِنه».

ومِن الأَمثلةِ الَّتي تُبيِّن طَريقةَ العُلماءِ في حُسن الظَّنِّ بغَيرِهم ما رَواه ابن أبي حاتم في «مناقب الشَّافعي» (ص ٢٧٤) عن الرَّبيع قالَ: «دَخلتُ على الشَّافعيِّ - وهو مَريضٌ - فقُلتُ: قوَّى اللهُ ضَعفَك، فقالَ: لَو قوَّى ضَعفِي قَتلَني! قُلتُ: والله! ما أَردتُ إلَّا الخَيرَ! قالَ: أَعلمُ أنَّك لَو

شَتمتَني لم تُرِد إلَّا الخَيرَ»، وفي روايةٍ: «قُلْ: قوَّى اللهُ قوَّتَك، وضعَّفَ ضَعفَك».

قالَ ابن تَيمية في «الرَّد على البَكري» (٢/ ٦٦٣): «فإنَّ الشَّافعيَّ نظرَ إلى حَقيقةِ اللَّفظِ وهو نَفسُ الضَّعفُ، والرَّبيعُ قَصدَ أن يُسمِّيَ الضَّعيفَ ضعفًا كما يسمَّي العادلُ عدلًا، ثمَّ لمَّا عَلمَ الشَّافعيُّ بحُسنِ قَصدِه أَوجبَ أن يَقولَ: لو سَببتَني صَريحًا - أي صَريحًا في اللُّغةِ - لعَلمتُ أنَّك لم تَقصِد إلَّا خَيرًا، فقدَّمَ علَيه عِلمَه بحُسنِ قَصدِه ولم يجعَل سوءَ العِبارةِ مُنقصًا، وقد يَسبقُ اللِّسانُ بغَير ما يَقصدُ القلبُ كما يَقولُ الدَّاعي مِن الفَرح: (اللَّهمَّ أنتَ عبدِي وأنا ربُّك)، ولم يُؤاخِذه اللهُ».

ورَوى ابن أبي الدنيا في «الصمت» (٥٠٦) الخرائطي في «مساوئ الأخلاق ومذمومها» (٦٨٤) عن ابن عَون قالَ: «اعتذَرَ رجلٌ عندَ إبراهيمَ (أي النَّخعي)، فقالَ: قد عَذَرناك غيرَ مُعتذِرٍ؛ إنَّ الاعتذارَ يُخالطُه الكَذبُ»، فجَمعَ

بين حُسن الظَّنِّ بالرَّجل والرَّحمةِ به كي يُجنِّبه الذَّنبَ.

هَكذا تَكونُ الصُّدورُ السَّليمةُ البَريئةُ من الأَحقادِ، روَى ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٥٥٧) عن زَيد بن أَسْلم قالَ: «دُخلَ على أبِي دُجانة وهو مَريضٌ وكانَ وَجهُه يتهلَّلُ، فقيلَ له: مَا لوَجهِك يَتهلَّل؟ فقالَ: مَا مِن عَملي شيءٌ أَوثقَ عندِي مِن اثنتَين، أمَّا إحدَاهما فكنتُ لَا أَتكلَّم فيما لَا يَعنِيني، وأمَّا الأخرَى فكانَ قَلبي للمُسلمينَ سَليمًا».

وروَى وَكيعٌ في «أخبار القضاة» عن مُعاويةَ بن قُرَّة قالَ: «كانَ أَفضلُهم - يَعني الماضِين - أَسلمَهم صَدرًا، وأَقلَّهم غِيبةً».

وفي «طبقات الأولياء» (ص ٢٦٧) لابن الملقن عن الفُضيل بن عِياض ﵀ قالَ: «مَا أَدركَ عِندَنا مَن أَدركَ بكَثرةِ صِيامٍ ولَا صَلاةٍ، ولَكن بسَخاءِ النَّفس وسلامةِ الصَّدرِ والنُّصح للأمَّة».

وقالَ ابنُ حِبَّان ﵀ في «روضة العُقلاء» (ص ١٢٦):

«التَّجسُّسُ مِن شُعَب النِّفاقِ كما أنَّ حُسنَ الظَّنِّ مِن شُعبِ الإيمانِ، والعاقلُ يُحسِّن الظَّنَّ بإِخوانِه ويَنفردُ بغُمومِه وأَحزانِه، كما أنَّ الجاهلَ يُسيءُ الظنَّ بإخوانِه ولَا يُفكِّر في جِناياتِه وأَشجانِه».

وقالَ الشَّيخُ محمَّد بن صالِح بن عثَيمِين رحمه الله في «الشَّرح المُمتع» (٥/ ٣٠٠): «يُستحبُّ للإنسانِ أن يَظنَّ بالمسلِمينَ خَيرًا، وإذَا وردَت كَلمةٌ مِن إنسانٍ تَحتملُ الخيرَ والشَّرَّ فَاحمِلها على الخيرِ ما وجَدتَ لها مَحملًا، وإذَا حصلَ فعلٌ مِن إنسانٍ يَحتملُ الخيرَ والشَّرَّ فَاحمِلْه على الخيرِ ما وجَدتَ له مَحملًا؛ لأنَّ ذلكَ يُزيلُ ما في قَلبِك مِن الحقدِ والعَداوةِ والبَغضاءِ ويُريحُك.

فإذَا كانَ اللهُ عز وجل لم يُكلِّفك أن تَبحثَ وتُنقِّب، فَاحمَد اللهَ على العافيةِ، وأَحسِن الظَّنَّ بإخوانِك المسلِمين وتَعوَّذ مِن الشَّيطانِ الرَّجيم.

وأمَّا ما يُذكَر عن النَّبيِّ عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ: «احتَرِسوا

مِن النَّاس بسوءِ الظنِّ»، فهَذا كذبٌ لَا يَصحُّ عن النَّبيِّ علَيه الصَّلاةُ والسَّلامُ، بل روَى أبو داود مِن حَديثِ ابن مَسعودٍ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قالَ: «لَا يُحدِّثني أحدٌ عن أحدٍ شَيئًا؛ فإنِّي أُحبُّ أن أَخرجَ إلَيكم وأنَا سَليمُ الصَّدر»[1]، وهَذا هو اللَّائقُ بالمسلِم.

أمَّا مَن فُتن -والعِياذُ بالله - وصارَ يَتتبَّعُ عَوراتِ النَّاس ويَبحثُ عنها، وإذَا رأَى شَيئًا يَحتملُ الشَّرَّ ولو مِن وَجهٍ بَعيدٍ طارَ به فرحًا ونَشرَه، فَليُبشر بأنَّ مَن تتبَّع عَورةَ أَخيه تتبَّع اللهُ عَورتَه، ومَن تتبَّع اللهُ عَورتَه فَضحَه ولو في جُحرِ بَيتِه».

---

(١) رواه أبو داود (٤٨٦٠) والتِّرمذيُّ (٤١٦٩)، ولعلَّ الشَّيخ رحمه الله يُثبتُ الحَديثَ مع أنَّ في إسنادِه مَجهولًا، وقد ضعَّفه التِّرمذيُّ ووافقَه الألبانيُّ على ذلكَ في تَحقيقِه للمَصدرَين المذكورَين، ولم أَقُل: لعلَّه يَتساهلُ في رِوايةَ الحَديثِ الضَّعيفِ في فَضائل الأَعمالِ؛ لأنَّ الشَّيخَ لَا يرَى ذلكَ كما في شَرحِه للمَنظومة البَيقونيَّة عند تَعريفِ الحَديثِ الضَّعيفِ.

يُشيرُ رَحِمَهُ اللهُ إلى حَديثِ ابن عُمرَ قالَ: «صَعدَ رَسولُ اللهِ ﷺ المنبرَ فَنادَى بصَوتٍ رَفيعٍ، فقالَ: يَا مَعشرَ مَن قَد أَسلمَ بلِسانِه ولم يُفْضِ الإِيمانُ إلى قَلبِه! لَا تُؤذُوا المسلمِينَ، ولَا تُعيِّروهم، ولَا تتَّبِعوا عَوراتِهم؛ فإنَّه مَن تتبَّعَ عَورةَ أَخِيه المسلِمِ تتبَّعَ اللهُ عَورتَه، ومَن تتبَّعَ اللهُ عَورتَه يَفضَحْه ولو في جَوفِ رَحْلِه، قالَ: ونَظرَ ابنُ عُمر يومًا إلى البَيتِ أو إلى الكعبةِ فقالَ: مَا أَعظمَكِ وأَعظمَ حُرمتَكِ! والمؤمِنُ أَعظمُ حُرمةً عندَ الله منكِ» رَواه التِّرمذيُّ (٢٠٣٢) وصحَّحه الألبانيُّ، ورَواه أبو داود (٤٨٨٠) مِن حَديثِ أبي بَرزة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

وقالَ ابنُ القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في «إعلام الموقِّعين» (٣/ ٣٩٦): «إذَا ظَفرتَ برَجلٍ واحدٍ مِن أُولي العِلم، طالبٍ للدَّليلِ مُحكِّمٍ له، مُتَّبعٍ للحقِّ حيثُ كانَ، وأَينَ كانَ، ومع مَن كانَ؛ زالَت الوَحشةُ وحَصلَت الأُلفةُ، ولو خالفَك فإنَّه يُخالفُك ويَعذرُك، والجاهلُ الظَّالمُ يُخالفُك بلَا حجَّةٍ ويُكفِّرُك أو يُبدِّعُك بلَا حجَّةٍ؛ وذَنبُك رَغبتُك عن طَريقتِه الوَخيمةِ

وسِيرتِه الذَّميمةِ، فلَا تَغترَّ بكَثرةِ هَذا الضَّربِ؛ فإنَّ الآلافَ المؤَلَّفةَ مِنهم لَا يعدلونَ بشَخصٍ واحدٍ مِن أَهل العِلم، والواحدُ مِن أَهل العِلم يعدلُ بمِلءِ الأَرض مِنهم».

٣- تَركُ المشي في النَّاس بالرِّيبةِ: قد جاءَت شَريعتُنا بأَنواعٍ من الاحتِياطاتِ - زِيادةً على ما سبقَ - لتَجنُّب هَذا الخُلق الذَّميم، مِن ذلكَ ما رَواه البُخاري في «الأدب المُفرد» (٢٤٨) - بسندٍ صحَّحَه الألبانيُّ (١٨٦) - عن مُعاويةَ رضي الله عنه قالَ: «سَمعتُ مِن النَّبيِّ ﷺ كلامًا نَفعَني اللهُ به، سَمِعتُه يَقولُ: «**إنَّكَ إذَا اتَّبعتَ الرِّيبَةَ في النَّاس أَفْسَدْتَهُم**»، فإنِّي لَا أَتَّبعُ الرِّيبةَ فِيهم فأُفْسِدَهُم»، وقد سلكَ مُعاويةُ رضي الله عنه في رعيَّته هَذه السِّياسةَ النَّبويَّةَ حتَّى كانَ مَحبوبًا عندَهم طيلةَ أَربعِين سنةً في ولَايتِه، كما قالَ أبو الدَّرداء رضي الله عنه: «كَلمةٌ سَمعَها مُعاويةُ مِن رَسولِ الله ﷺ نَفعَه اللهُ تَعالَى بها» رَواه أبو داود (٤٨٨٨) وصحَّحَه الألبانيُّ.

وفي هَذا المعنَى نهيُ النَّبيِّ ﷺ المُسافرَ إذَا رجعَ أن يَدخلَ على أَهلِه ليلًا بَغتةً ليَستكشفَ خِيانتَهم؛ ففي «صَحيح مسلم» (٥٠٧٨) عن جابرٍ قالَ: «**نهَى رَسولُ الله ﷺ أن يَطرُقَ الرَّجلُ أَهلَه لَيلًا يتَخوَّنُهم أو يَلتمِسُ عثراتِهم**»، وما لهَذا الفِعل مِن دافعٍ سوَى سوءِ الظَّنِّ، وقد يَدفعُ فِعلُه هَذا أَهلَه أيضًا لِيُسيئوا به الظَّنَّ، فيَعيشُ أَهلُ البَيت على نارِ الرِّيبةِ والظُّنونِ.

ومِن الاحتِياطاتِ الَّتي كانَ يأخذُ بها السَّلفُ ما أخرجَه البخاري في «الأدب المفرد» (١٦٨) - وصحَّحه الألبانيُّ (١٢٥) - عن سَلمان رضي الله عنه قالَ: «إنِّي لأَعدُّ العُراقَ على خادِمي مَخافةَ الظَّنِّ»، والعُراق جَمعُ عَرْق، قالَ الأزهري في «تهذيب اللغة»: «وهيَ العِظامُ الَّتي اعتُرِقَ منها هَبْر اللَّحم وبقيَ علَيها لحومٌ رَقيقةٌ طيِّبةٌ، فتُكسَر وتُطبَخُ... ولحمُها مِن أَمرء اللُّحمانِ وأَطيَبها»، ومَعناه أَنَّه يَعدُّ أَمامَ خادِمِه الأَشياءَ المُتبقيَّةَ في البَيت؛ حتَّى إذَا عَلِم الخادِمُ أنَّ كلَّ شيءٍ

مُحصًى مِن أَهلِه لم تُسوِّل له نَفسُه أن يَختلِسَ منها، وحتَّى يَدفعَ صاحبُ البَيتِ عن نَفسِه إِساءةَ الظَّنِّ بخادِمِه لو ضاعَ شيءٌ من ذلكَ، وفي مَعناه ما أَخرجَه هو أيضًا (١٦٧) - وصحَّحه الألبانيُّ (١٢٤) - عن أبي العالية قالَ: «كنَّا نُؤمَر أن نَختمَ على الخادِمِ ونَكيلَ ونَعدَّها؛ كَراهيةَ أن يَتعوَّدوا خُلقَ سوءٍ ويَظنَّ أحدُنا ظنَّ سوءٍ».

٤- الاجتِهادُ في إنصافِ الخَصم: النَّاسُ أقلُّ ورعًا بما لَا يَكادُ يُقارَن في كلِّ خبرٍ له صلةٌ بالخَصم، لَا سيما ما كانَ في ثَلبِهم وانتِقاصِهم، فهاهنا تَضعفُ أَنفسُهم حتَّى يُفارقَهم الإنصافُ.

على الرغم من أنَّ الواحدَ من هؤلَاءِ المُتسرِّعِين في النَّقل، المُشيعِين للأخبارِ بغيرِ عِلمٍ ولَا عدلٍ، لو عَلِم أنَّ ناقدًا له نَشرَ إحدَى السَّيِّئاتِ المنسُوبةِ إلَيه من غيرِ تحقُّقٍ ولَا تروٍّ لسارَعَ إلى الإِنكارِ علَيه وطلَبِ الدَّليل والبيِّنةِ على ذَلكَ ووَصفِه بالتَّهوُّر، ألَا فكَما أنَّه لَا يُحبُّ أن يَظنَّ فيه

النَّاسُ سوءًا من غيرِ تبيُّنٍ فلَا يُحمِّلنَّ قلبَه عن غيرِه سوءًا إلَّا بعدَ تَحقُّقٍ وتبيُّنٍ؛ كما قالَ النَّبيُّ ﷺ: «**فَمَن أَحبَّ أَن يُزحزَحَ عن النَّارِ ويُدخَلَ الجنَّةَ فلتَأْتِه منِيَّتُه وهُوَ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ، ولْيَأتِ إلى النَّاسِ الَّذي يُحبُّ أَن يُؤتَى إلَيْه**» روَاهُ مُسلمٌ (١٨٤٤).

وهَذا هوَ المُستَوى الخُلقيُّ لكَثيرٍ من النَّاس: حُكمٌ بتَعسُّف؛ مَبناه الظَّنُّ والتَّكلُّف! ولو أنَّ أَحدَهم عدَّ كلامَه مِن عملِه، وأَيقنَ أنَّ عملَه مَعروضٌ علَيه يومَ قِيامِه بين يدَي ربِّه؛ لأَقصرَ عن الهُجوم على أَعراض النَّاس بالظُّنونِ، روَى ابن المقرئ في «المعجم» (١٦١) عن سُفيانَ الثَّوري قالَ: «لمَّا قدِم عمرُ بن عبدِ العَزيز كَتبَ إلى أَهل الشَّام كَلمتَين: مَن عَلِم أنَّ كلامَه مِن عَملِه أَقلَّ منه إلَّا فيما يَنفعُه، ومَن أَكثرَ ذِكرَ الموتِ اجتَزأَ مِن الدُّنيا باليَسيرِ، والسَّلامُ».

لكنَّ قلَّةَ الدِّيانةِ وضَعفَ الإيمانِ باليَوم الآخِرِ مع ضَحالةِ العِلم يورِدُ صاحبَها مَواردَ النَّدم يومَ لَا يَنفعُ

النَّدمُ، وإنَّ بَهْتَ النَّاس بالتُّهم سهلٌ، ولكنَّ الإتيَان علَيها بالدَّليل يومَ القِيامةِ لهوَ العُسر، وأيُّ عُسرٍ! فكلُّ تُهمةٍ لَا تَجرؤُ على تَرديدِها يومَ الدِّين دَعْها اليومَ فهوَ أَسلَمُ لك، واللهُ المستَعانُ.

فهرس



مطبعة سفير تليفون ٤٩٨٠٧٨٠ - ٤٩٨٠٧٧٦ الرياض

ردمك : ٧- ٨٨٣١ -٠٠ -٦٠٣- ٩٧٨